دور الأرشيفات والوثائق التاريخية في كتابة تاريخ المقاومة الجزائرية (الربع الأخير من القرن التاسع عشر)

ابراهيم مياسي

لقد عرفت الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عدة مقاومات شعبية مسلحة، انتقلت من المدن الى الأرياف والجبال والصحاري، تزعمها المرابطون ورجال الدين (العلماء)، ذلك أن الاحتلال الفرنسي بعد أن ثبت أقدامه على السواحل والمدن، أصدرت حكومة الجمهورية الفرنسية الثانية قراراً، في شهر مارس 1848، ينص على أن الجزائر جزء من التراب الفرنسي[1]، ولهذا عزمت فرنسا على التوسع لاحتلال كامل التراب الجزائري، فاتجهت نحو المناطق الداخلية والنائية من البلاد، واصطدمت في طريقها بمقاومات شعبية عنيفة مثل ثورة واحة الزعاطشة بقيادة الشيخ بوزيان عام 1848[2]. ومقاومة جبال جرجرة خلال الخمسينات تحت زعامة محمد الشريف بوبغلة ، وفاطمة نسومر[3]. وفي الصحارى تعرض الفرنسيون لمقاومة شعبية شديدة من قبل أهل الأغواط وأهالي وادي سوف وتوقرت بوادي ريغ وأهالي وادي ميزاب وغيرهم.

أما الستينات فقد تميزت بانتفاضات عنيفة ومريرة لأولاد سيدي الشيخ في الجنوب الوهراني ثم مقاومة الشريف بوشوشة (1874/1869)، وواكبتها ثورة 1871 لعائلتي المقراني والحداد[4] بمنطقة القبائل الصغرى ثم جاءت ثورة واحة

العمري بنواحي بسكرة (1876) وثورة الأوراس سنة 1879[5]، ثم ثورة الشيخ بوعمامة لتصدي التوسع الاستعماري في الجنوب الغربي الجزائري، وهي في الحقيقة استمرار وامتداد لانتفاضات أولاد سيدي الشيخ العديدة منذ 1864، ثم مقاومة أهالي تديكلت وقورارة وتوات وغيرها من المقاومات الكبرى التي لا يمكن حصرها في هذه العجالة.

ذلك أن معظم هذه المقاومات لم تدرس حتى الآن بكيفية موضوعية وعلمية، وشاملة. لأن معظم وثائقها ما زالت جاثمة ومكدسة في ذور المحفوظات بدون تفحص ودراسة والتاريخ كما هو معروف يصنع من الوثائق[6].

أهمية وثائق المقاومة الجزائرية

ان المصدر الأساسي والمباشر لكتابة تاريخ المقاومة الجزائرية هو الأرشيفات والوثائق التاريخية التي نستسقي منها المعلومات الصحيحة والدقيقة حسبما تقتضيه النظرة الموضوعية والعلمية ، وتتطلبه الحقيقة التاريخية. ذلك ان هذه الوثائق تعد الأصول الضرورية لإعادة بعث ونسق الأحداث التاريخية. لذلك فلا بد على كل باحث تاريخي أن يرجع اليها.

وتكونت وثائق هذه المقاومة من الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية ـ مثل المراسلات السياسية والأوامر والقرارات والحالات والمعاهدات والاتفاقيات وغيرها. كذلك تكونت من المذكرات الشخصية أو اليوميات ومن الاشعار وخاصة الشعر الشعبي ومن الخطب أو المقالات. والندوات. والروايات. والآثار المادية.

هذا مع العلم أنه لا بد من فحص هذه الأصول والتأكد من صحتها. وتثبيت خلوها من الدس أو التزوير. وسأحاول أن أسلط الضوء على عينة بسيطة من هذه الوثائق لمقاومة الجنوب الغربي الجزائري بزعامة الشيخ بوعمامة في الربع الأخير من القرن الماضي.

أولا: أرشيف وزارة الحرب بفنسان (فرنسا)

يحتوي هذا الأرشيف على عدة مجموعات أهمها:

أ ـ سلسلة (G) التي تضم وثائق تخص التنظيمات الادارية للجزائر من 1883 الى 1902 .

ب ـ سلسلة (H) وتشتمل على الوثائق التي تختص بالأوضاع السياسية في الجزائر.

وأهم صندوق يخص هذه المقاومة هو H. 376 الذي يحتوي على عدة وثائق نأخذ منها بعض النماذج التالية:

2 ـ رسالة من الوالي العام المدني للجزائر الى وزير الحرب بباريس، بتاريخ 15 أفريل 1881. موضوعها، الأوضاع السياسية بالناحية الوهرانية، ومنها احتمال اشتراك أولاد سيدي الشيخ في القضاء على بعثة فلاترس، ثم تقييم نفوذ بوعمامة في المنطقة.

1 ـ رسالة من والي وهران الى الوالي العام المدني للجزائر بتاريخ 09 أفريل 1881، وموضوعها هو تقديم بعض المعلومات والأخبار عن بوعمامة. ومدى تأثيره على القبائل الصحراوية وخاصة بعد أن وعدهم بأنه سيخلصهم من الاحتلال الفرنسي وهذا قبل حلول فصل الصيف القادم.

3 ـ قرار عام من مركز القيادة بالجزائر. في 24 ماي 1881 وهو قرار لتحرك القوات الفرنسية لمواجهة قوات بوعمامة بعد معركة 19 ماي.

4 ـ رسالة من الجنرال سوسيه (Saussier) قائد الفيلق التاسع عشر الى وزير الحرب. صادرة من وهران بتاريخ 18 جويلية 1881 وموضوعها اعلام الوزير بالخطط العسكرية لمواجهة مقاومة بوعمامة.

5 ـ رسالة من الجنرال سوسيه قائد الفيلق التاسع عشر الى الجنرال دليبـاك (Delebecque) قائد الناحية العسكرية بوهران. الجزائر في 02 سبتمبر 1881 وهي خاصة بالتعليمات والتحضيرات لهجوم على بوعمامة. بعد انخفاض درجة الحرارة خلال فصل الخريف القادم.

6 ـ تقرير أجمالي حول العمليات التي انجزت من 08 الى 16 نوفمبر 1881.

ثانيا : أرشيف ما وراء البحار، أكس آن بروفانس (فرنسا):

وهو من أهم الأرشيفات التي تحتوي على عدة وثائق خاصة بالمقاومة منها:

ـ صندوق F.80.1683b. .

ويحتوي على عدة وثائق تتعلق بالخسائر البشرية والمادية التي ألحقها الثوار بالشركة الجزائرية الفرنسية لاستغلال الحلفاء ومنها ما يلي:

1 ـ تقرير متعلق بالهجوم والتقتيل الذي حصل أيام 11، 12 و13 جوان على ورشات الحلفاء بدائرة سعيدة وهو تقرير من قائد ناحية سعيدة بتاريخ 23 جوان 1881 تحدث فيه خاصة عن خسائر حظائر الحلفاء للمقاولين الاسبانيين مانويال فيونتاس (Manuel Fuentés) ومارينو كامبيو (Mariano) (Campillo) والذين يعملان ضمن الشركة الفرنسية ـ الجزائرية ، وبين التقرير عدد القتلى والجرحى والمفقودين، وكذا المقادير المالية التي خسرتها الشركة من جراء هجوم ثوار بوعمامة عليها. كما تحدث التقرير أيضا عن حرق ورشة حداد لمعمر يقطن بخلف الله، واتلاف مزرعة المعمر مانويال جان الموجودة على بعد 6 كلم من عين الحجار، وبذلك تكون الحوصلة العامة للخساء المنجرة عن الثورة بـ 649.401،50 فرنك.

ونستشف من هذا التقرير أن الثورة قد ضربت بشدة مصالح الاستعمار واستغلاله حتى تقوض أركانه في المنطقة، وتخلص البلاد والعباد من استغلاله البشع.

2 ـ رسالة من العقيد «دوفوكيرسون (De Vaucresson) القائد الأعلى الى الجنرال قائد الفرع العسكري بسعيدة في 26 سبتمبر 1881 تحدث فيها بالتفصيل عن القتلى والمفقودين والخسائر المالية للشركة من جراء ثورة 1881 ثم اتبعها بحالات مفصلة هي:

ـ الحالة رقم 1 = وبها أسماء الاسبان القتلى بورشات الحلفاء وعددهم 52 قتيلا.

ـ الحالة رقم 2 = وبها أسماء المفقودين من الاسبان وعددهم 85 مفقودا.

ـ الحالة رقم 3 = وبها قيمة الخسائر التي تقدر بـ 828.453،50 فرنك.

3 ـ رسالة من الشركة الفرنسية ـ الجزائرية الى رئيس لجنة سعيدة ـ باريس في 02 فيفري 1882.

وهي من ضمن الرسائل المتبادلة ما بين الشركة والوالي العام المدني الجزائري وهي رد على رسالة الوالي العام بتاريخ 30 أكتوبر الماضي متبوعة بتقرير من سبع صفحات تحت عنوان: «حالة الخسائر التي أحدثت للشركة الفرنسية ـ الجزائرية من جراء الثورة التي انفجرت بالهضاب العليا لاقليم وهران في أفريل 1881. ذلك أن هذه الخسائر قد قدرت حسب السنوات التالية:

ـ 1881 قدرت بـ 3.518.800 فرنك.

ـ 1882 قدرت بـ 3.587.200 فرنك.

ـ 1883 قدرت بـ 2.500.000 فرنك.

ـ 1884 قدرت بـ 688.000.

وبذلك فإن مجمل الخسائر هذه الشركة تقدر بأكثر من 10 ملايين فرنك.

4 ـ رسالة من الوالي العام للجزائر الى وزير الداخلية بباريس الجزائر في 30 سبتمبر 1883.

وهي خاصة باعلام الوزير عن الترتيبات والاجراءات المتخذة لدفع التعويضات للمتضررين الاسبان وغيرهم من الثورة.

5 ـ رسالة من وزير الشؤون الخارجية الى وزير الداخلية باريس 2 أكتوبر 1884.

وهي من أجل ابلاغ وزير الداخلية عن التعويضات التي قدمت للرعايا الاسبان ضحايا ثورة 1881.

صندوق 30H 79

1 ـ برقية من الناحية العسكرية بوهران بتاريخ 10 أوت 1883 موجهة الى الولاية العامة للجزائر ـ المصلحة العامة للشؤون الأهلية وفحواها اختفاء بوعمامة بواحات فيقيق.

2 ـ برقية من الجنرال سوسيه. قائد الفيلق التاسع عشر الى تيرمان. 15 شارع بروكسال ـ باريس.

وهي صادرة من الجزائر بتاريخ 08 سبتمبر 1883 ويطالب فيها من تيرمان بأن يبلغ الحكومة الفرنسية بأن بوعمامة ما زال معتصما بفقيق، وهذا يشكل خطر على أمننا وكرامتنا لهذا يجب ارغام السلطان المغربي على أن يعطي أوامره لطرد بوعمامة من فيقيق.

3 ـ رسالة من قياد متلبلي الى حاكم غرداية بتاريخ 29 ماي 1888 ليقدموا فيها أخبار تحركات بوعمامة للسلطات الفرنسية.

4 ـ رسالة من بوعمامة الى القائد محمد بن فرج الله والقايد قويدر بن التكار والقائد علي بن حروز بدون تاريخ وموضوعها هو التصالح ما بين بوعمامة وهؤلاء القياد.. وجلبهم في صفّه.

5 ـ رسالة من الجنرال «ديتري» Détrie قائد الناحية العسكرية بوهران الى الوالي العام للجزائر، تاريخها 15 ديسمبر 1888 وهي تدور حول أخبار بوعمامة واستقراره بدلدول وحالة القافلة الآتية من تمبوكتو.

6 ـ رسالة من بوعمامة الى الوالي العام بتاريخ 27 جمادي الأول 1318 هـ (الموافق لشهر سبتمبر 1900 م).

وموضوعها طلب الأمان لبعض القبائل لكي تستطيع العودة من المغرب الى ديارهم.

7 ـ مخطط لمخيم بوعمامة بتاريخ 26 ماي 1896 من تصميم الملازم رئيس مركز جنان بورزق.

هذا بالإضافة الى الصناديق التالية:

30 H 80 ـ 30 H 81 و 30 H 51 إلى 30 H 53 كذلك 1 H 22 الى 9 H 22 وغيرها من الصناديق العديدة أما التقرير العسكرية الاسبوعية والشهرية التي تبين ما يحدث في الجنوب الوهراني فهي ضمن مجموعة ـ J ـ ومجموعة ـ JJ ـ 1 JJ 1 à 465 فهي تحتوي على سجلات المراسلات العسكرية بوهران:

ـ من 1 الى 3 مراسلات عامة من 1885 الى 1908.